أثر اللغة العربية

في تكوين الشخصية العلمية

د. إسلام بن نصر الأزهري

الألوكة
www.alukah.net

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أثرُ اللُّغةِ العربيَّةِ

في تكوِين الشَّخْصِيَّة العِلميَّة.

كتبَهُ
الدُّكتور إسلام بن نصر الأزهريّ
بكلية أصول الدين ـ قسم الحديث وعلومه ـ جامعة الأزهر

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أثرُ اللُّغةِ العربيَّةِ في تكوين الشَّخْصِيَّة العِلميَّة.

الحمد لله الَّذي صرف قلوب أوليائه إلى طاعته، ونحا بنا إلى طريق وِلايته وكرامته، وبلَّغنا بشكره رضاه وجنَّته، والصَّلاة والسَّلام على أفصح من نطق بالضَّاد، صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن سار على طريقته.

وبعد ...

فإنَّ صلاحَ الأمم وتقدُّمَها وبهاءها، وفسادها وانحطاطها ووهاءها = مرتبط ارتباطًا وثيقًا باللُّغة، فهي صورة وجودها، ومصدر سبقها، وحبل التَّواصل بين حاضرها وماضيها، وما ذلَّت لغة قوم إلَّا ذلُّوا، ولا انحطَّت إلا كان أمرها إلى ذهاب وإدبار؛ لذا كان من أهداف المستعمر المخَرِّبِ = هدمُ اللغة؛ لأنَّها المعرب عن ثقافة أهلها وحضارتهم، وهي المخزون الحضاريُّ لأمجادهم، فإذا هُدِمَت .. هُدِم ماضيهم. وأمَّة لا تعرف ماضيها لا يمكن أن تُشيِّد حضارة مستقبلها.

وأكثر اللُّغات تعرُّضا لحملات الإفناء = لغةُ العرب الشريفة، وسعيهم حثيث في هدم الدين والأخلاق، لكنَّ أخطرَ الدَّعوات وأقذرَها، هي تلك التي تهدف إلى هدم اللُّغة العربية؛ ذلك أن الدَّعوات التي تهدف إلى هدم الدِّين والأخلاق = قد تُضِلُّ جيلًا، ويظل الأمل في إنقاذ الجيل القادم كبيرًا، ما دام القرآن بين أيدينا، حيًّا في قلوبنا وعلى ألسنتنا، نتذوَّق حلاوة أسلوبه، وجمال عباراته.

أمَّا تلك التي تهدف إلى هدم اللُّغة = فهي ترمي إلى محوِ القرآن نفسه . وهيهات . والحكمِ عليه بأن يصبح أثرًا ميِّتا بعد عين، كأساطير الأولين، الَّتي أصبحت حَشْوَ لفائف البرديّ ـ إذ اللغة هي مفتاح فهم القرآن والسنة ـ أو أن يصبح أسلوبه باليا . وهيهات . بحيث تنشأ الأجيال على تذوُّق ألوان أخرى من الأساليب الغربية.

لكنَّ ارتباطها بالقرآن المجيد، أضفى عليها البقاء؛ لأنَّ القرآن الكريم محفوظٌ بحفظ الله . تعالى . له. قال . تعالى . (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون) [الحجر: ٩]. ومن ثَمَّ: فهي محفوظة كالقرآن الكريم.

أضف إلى ذلك أن فيها من اللُّيونة والمرونة ما يُمَكِّنَانِهَا من التَّكَيُّف وفقًا لمقتضيات العصر، فهي لغةٌ شجاعةٌ، صادقةٌ في تعبيرها، مفصحةٌ عمَّا يدور في خَلَد صاحبها، وخلجات نفسه، وخطرات قلبه = غاية الإفصاح.

يقول شيخ العربية العلامة أبو فِهر: "للعربيَّة شجاعةٌ صادقةٌ في تعبيرها، وفي اشتقاقها، وفي تكوين أحرُفِهَا، ليست للغة أخرى. وإذا كانت اللُّغةُ هي خزانة الفكر الإنسانيِّ، فإنَّ خزائن العربيَّة قد ادَّخرت من نفيس

البيان الصَّحيح عن الفكر الإنسانيِّ، وعن النفوس الإنسانيَّة، ما يُعجزُ سائرَ اللُّغات؛ لأنها صُفِّيَت منذ الجاهليَّة الأولى المعرِقَةِ في القدم، من نفوس مختارة بريئة من الخسائس المزرية، ومن العلل الغالبة، حتى إذا جاء إسماعيلُ نبيُّ الله، ابنُ إبراهيم خليلِ الرَّحمن، أخذها وزادها نصاعة وبراعة وكرمًا، وأسلمها إلى أبنائه من العرب، وهم على الحنيفيَّة السَّمحة دينِ أبيهم إبراهيم، فظلت تتحدَّر على ألسنتهم مختارةً مصفاةً مبرأةً، حتَّى أظلَّ زمان نبيٍّ لا ينطق عن الهوى ـ صلَّى الله عليه وسلَّم ـ فأنزل الله بها كتابه بلسان عربيٍّ مبين".

ولا بدَّ منها لمن أراد أن يسلك طريق العلم، فعليها بعد الله ـ تعالى ـ المعتمدُ في حصول طالب العلم على مراده، وإشباعه نَهْمته، وتحصيله رغبتَهُ.

أمّا صاحب القرآن الكريم:

فأنَّ له إعرابُ مبانيه؛ للإعراب عن معانيه .. إلَّا بها؟! إذ هي الكفيلة بإيضاح حقائق التَّنزيل، والكشف عن خفايا التَّأويل، وإظهار دلائل الإعجاز، وتبيين الحقيقة من المجاز.

قال ابنُ عطيَّة: "إعرابُ القرآن أصلٌ في الشَّريعة؛ لأنّ بذلك تقوم معانيه التي هي الشَّرعُ".

لذلك ورد عن عبد الله بن بُريدة، عن رجلٍ من أصحاب النَّبيّ ـ صلَّى الله عليه وسلَّم ـ قال: "لو أنِّي أعلمُ أنِّي إذا سافرتُ أربعين ليلةً أعربتُ آيةً من كتاب الله لفعلتُ"؛ لأن إعراب المباني إعرابٌ عن المعاني.

وأنَّ له معرفةُ غريبه، وإظهارُ خفيِّ معانيه إلَّا بها؟! ومعرفة هذا الفن للمفسّر ضروريٌّ، وإلَّا فلا يحلّ له الإقدام على كتاب الله ـ تعالى ـ" كما قال الزَّركشِيُّ.

روى عكرمة عن ابن عبَّاس قال: "إذا أعيتكم العربيَّة في القرآن، فالتمسوها في الشِّعر، فإنه ديوان العرب".

وقال مجاهد: "لا يحلُّ لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلَّم في كتابِ الله إذا لم يكن عالِمًا بِلُغات العربِ"

وقال مالكُ بنُ أنس: "لا أوتى برجل يفسّر كتاب الله، غيرِ عالم بلغة العرب إلَّا جعلتُهُ نكالًا".

وقال الزَّركشِيُّ: "ويحتاجُ الكاشِفُ عن ذلك إلى معرفة علم اللغة، اسمًا وفعلًا وحرفًا، فالحروفُ لقلَّتها تكلَّم النُّحاةُ على معانيها، فيؤخذ ذلك من كتبهم".

وأنَّ له استنباطُ أسرار القرآن الكريم، وافتضاضُ أبكار معانيه، وتدبُّرُه وتأمُّلُه؛ للوصول إلى مقاصده ومراميه .. إلا بتعلُّمها وفهم أسرارها؟!

فقد خُبِّأت أسرار معاني القرآن الكريم خلف أساليبه، مفردة ومركَّبة.

وأنَّى له تذوُّقُ حلاوة أسلوبه، وجمال عباراته، وحسنَ صياغته وسبْكه؛ ليزداد إيمانا ويقينا .. إلَّا بمعرفة لغته، دقها وجلِّها؟!

وأنَّى له إظهارُ جماليَّات بيانه السَّاحر الأخَّاذ، الّذي يفرِّق بين المرء وعادته، وينفذ حتَّى ينصرف بين القلب وإرادته .. إلّا بالبراعة في معرفة لغة العرب؟!

قال الثَّعالبيُّ: "ولَو لم يَكُن في الإِحَاطَةِ بخصائصها، والوُقوفِ على مَجَاريها ومصارِفِهَا، والتَّبَحُّرِ في جلائها ودقائقها إلا قُوَّة اليقين في **معرفة إعجاز القرآنِ**، وزِيادةِ البَصيرة في إثْبَاتِ النُّبُوَّة، الَّتي هي عمدةُ الإيمان = لَكَفَى بِهِمَا فضْلًا يَحْسُنُ فيهما أثرُهُ ويطيبُ في الدَّارَيْنِ ثَمَرُهُ"

وأنَّى له توجيهُ قراءاته، والنَّظرُ فيها، واستنباطُ غزير فوائدها، وبيانُ آثارها العقديَّة، والتَّربويّة، والفقهيَّة، والذَّبُّ عن حياضها، ودفعُ الشُّبهات المثارة حولها .. إلَّا بالتَّمكُّن من اللُّغة الشَّريفة؟!

وقد كان أهلُ العِلْمِ يَعُدُّون العلمَ بالعربيَّة منقبةً للقُرَّاء، وداعيًا إلى التَّفاضُلِ والتَّقدُّم بينهم. وبمطالعة يسيرة لتراجم القُرَّاء، وَتأَمُّلٍ لأحوالهم = تجدُ أنَّ المقدَّمَ بينهم في القراءة .. مُقَدَّمٌ في العَرَبِيَّة. فهذا أبو عمرو بنُ العلاء: كان إمامًا في العربيَّة والقِرَاءَةِ. **وقال أبو حاتم**: "الكِسَائيُّ أعلمُ الكوفيِّين بالعربيَّة والقرآن، وهو قدوتهم". **وقال الأصمَعِيُّ**: "قلتُ لأبي عَمرو: قرأتَ على ابنِ كثير. قالَ: نعم، ختمتُ على ابنِ كثير، بعدما ختمتُ على مُجاهد. وكان ابنُ كثيرٍ أعلمَ بالعربيَّة من مجاهد". **وقال عاصمٌ**: "من لَمْ يُحسِنِ من العربيَّة إلَّا وَجْهًا = لم يُحْسِن شَيْئًا".

بل وصل الحال ببعضِهم أنَّه أنفق أموالًا طائلة؛ في سبيل إتقان بابٍ من أبواب العربيَّة. **قال خلفُ بنُ هشامٍ البزَّارُ**: "أُشْكِلَ عليَّ بابٌ من النَّحْوِ، فأنفَقْتُ في تَحْصِيلِه ثمانيةَ آلافِ دِرْهَمٍ حتَّى حَذَقْتُهُ".

وأنَّى له تعلُّمُ وقفه وابتدائه، ومعرفةُ مواطن فصله ووصله؛ ليكون عونًا له على التَّدبُّر والفهم، وسبيلا موصِّلًا إلى تبيين مراد الله – تعالى – منه .. دون أن يتضلَّع باللُّغة – نحوًا وبلاغة –؟! فعليها – بعد الله تعالى – العمادُ.

قال ابنُ الأنباريِّ: " من تمام معرفة القرآن ومعانيه وغريبه، معرفةُ الوقف والابتداء فيه"

وقال علمُ الدِّين السَّخاويُّ: "ففي معرفة الوقف والابتداء الَّذي دوَّنه العلماء = تَبْيِيْنُ معاني القرآن العظيم، وتعريفُ مقاصده، وإظهارُ فوائده، وبه يتهيَّأُ الغَوصُ على دُرَرِهِ وفرائِدِهِ".

ولا قوام لراغب علم الوقف والابتداء إلا بالمهارة التَّامَّة في لغة العرب. **قال ابن مجاهد:** "لا يقوم بالتَّمام إلا نحويٌّ، عالمٌ بالقراءة، عالمٌ بالتَّفسير، عالمٌ بالقصص وتلخيص بعضها من بعض، عالمٌ باللُّغة الَّتي نزل بها القرآن".

وأنَّى له الدِّفاعُ عنه، وصدُّ الهجْمات الشَّرسة عليه ، والذَّودُ عن حماه، وبيانُ إعجازه في غريب أساليبه وتراكيبه؛ لينعم بدحر شبهة تتضاءل افتضاحًا، أمام حُجَّة تتبختر اتِّضاحًا؛ نصرةً للحقِّ وخزيا للباطل .. إلَّا بتمكُّنه من لغة العرب الشَّريفة؟!

قال أبو منصور الأزهريُّ: "فعلينا أَن نجتهدَ فِي تعلُّم مَا يُتوصَّل بتعلمه إِلَى معرفَة ضروب خطاب الْكتاب، ثمَّ السُّنن المبيِّنة لجمل التَّنْزِيل، الموضّحة للتأويل؛ **لتنتفيَ عَنَّا الشبهةُ الداخلةُ على كثير من رُؤَسَاء أهل الزَّيْغ والإلحاد، ثمَّ على رُءُوس ذَوي الْأَهْوَاء والبِدَع**، الَّذين تأوَّلوا بآرائهم المدخولة فأخطئوا، وتكلَّموا فِي كتاب الله ـ جلّ وعزّ ـ بلَكْنَتِهِم العجميّةِ دونَ معرفةٍ ثاقبة، فضلُّوا وأضلُّوا."

إنَّ كلَّ حرف، وكلمة، وجملة، وتركيب، وأسلوب، في هذا الكتاب المجيد موضوع لمعنى مبهر لكلِّ ناظر حصيف، مهما تقادم الزَّمن، فلا يَخْلق على كثرة الرَّدِّ، فكلَّما شاب الزَّمان شَبَّ. ولا يُستطاع هذا إلَّا لعارف باللُّغة وفنونها.

قال أبو بكر وعمر: "تعلم إعراب القرآن أحبُّ إلينا من تعلّم حروفه".

وكان عمرُ بنُ الخُطَّاب ـ رضي الله عنه ـ يأمر بألَّا يُقْرِئَ النَّاس إلَّا عالمٌ باللُّغة.

وقال ابن مسعود: "أعربوا القرآن فإنَّه عربيٌّ".

وقال الحسن: "من لحن في القرآن فقد كذب على الله".

وقال أبو بكر بن الأنباريّ: "جاء عن النَّبيِّ ـ صلّى الله عليه وسلَّم ـ وعن أصحابه، وتابعيهم – رضوان الله تعالى عليهم أجمعين – من تفضيل إعراب القرآن، والحضِّ على تعليمه، وذمِّ اللّحن وكراهيته، ما وجب به على قرّاء القرآن، أن يأخذوا أنفسهم بالاجتهاد في تعلُّمه".

وقال الزَّرْكَشِيُّ: "واعلم أنّه ليس لغير العالم بحقائق اللغة وموضوعاتها تفسيرُ شيء من كلام الله، ولا يكفي في حقّه تعلّم اليسير منها، فقد يكون اللفظ مشتركا وهو يعلم أحد المعنيين، والمراد الآخر".

ويجمع ما سبق في عبارة مختصرة، قولُ العزِّ بن عبد السلام: " تتوقَّف معرفة القرآن على معرفة اللُّغة والإعراب".

فيا صاحب القرآن! لغتَك لغتَك، هي شرفك، وعزُّك، وهُوِيَّتُك. فإذا فرطت فيها .. فلا قيمة ولا قيام لك.

شبكة الألوكة www.alukah.net
www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وأمَّا العَقَائديُّ:

فلا غنى له عن اللُّغة وعلومها في تصفيةِ عقيدته، وتقويةِ حُجَّته.

وبدونها = بحثُه قاصرٌ، وثغراتُه كبيرةٌ، وحُجَّته ضعيفةٌ، ولا يستطيع صَوْنَ عقيدته عن أكدار التَّشبيه، أو التَّعطيل، أو التَّأويل الفاسد، أو سائر الانحرافات الأخرى.

وقد عقدَ ابنُ جنِّيّ المعتزليُّ في خصائِصِه بابًا في هذا، أسماه: "بابٌ فيما يؤمِّنُهُ علمُ العربيَّةِ منَ الاعتقاداتِ الدِّينيَّةِ" قالَ في مطلعهِ: "اعلم أنَّ هذا البابَ من أشرفِ أبوابِ هذا الكِتَابِ، وأنَّ الانتفاعَ بِهِ ليسَ إلى غايةٍ ولا وراءَهُ من نِّهَايةٍ؛ وذلك أنَّ أكْثَرَ من ضَلَّ من أهلِ الشَّريعَةِ عن القصد فيها، وحاد عن الطَّرِيقَةِ المثْلَى إليها = فإنَّما استهْوَاهُ واستَخَفَّ حلمَهُ ضَعْفُه في هِذِه اللُّغة الكريمة الشَّريفة، الَّتي خُوطب الكافَّة بها".

وعلى الرّغم من أنَّه ـ ابنَ جنِّيّ ـ قد قصد بهذا الكلام نصرةَ مذهبه الاعتزاليّ، ووظَّفه في تقوِيَتِهِ .. إلَّا أنَّ كلامَه يوضِّحُ مدى العلاقة الوَشِيجَةِ بين علوم اللُّغة وعلم العقيدة.

وكثيرٌ من الخلافات بين العقائِدِيِّين وقَعَ بسبب تفاوت معرفةِ المختلِفِين بعلوم اللُّغةِ.

قال الشّنتريني: " وأكثرُ الخلافيَّات في الأديان، إنَّما منشؤها من تفاوُت الدَّرجات في علم اللِّسان".

وقد استغلَّ أهل الانحراف سَعة اللُّغة؛ ليستدلُّوا على انحرافاتهم ببعض ما يَسُوغُ لغةً.

من ذلك: أنَّ رجلًا طلب من أبي عمرو بن العلاء أحدِ القرَّاء السَّبعة أن يقرأ: **﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾** [النساء: ١٦٤] بنصب لفظ الجلالة! فقال له: هبني فعلتُ ذلك، فما تصنع بقوله: **﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾** [الأعراف: ١٤٣]. فَبُهت الرَّجُل.

وقد ذكروا أنَّ خطيبًا شيعيًّا بلغَ السُّلطانَ سبُّه عمرَ وسائر الصَّحابة، فزجَرَه السُّلطانُ وأوعده إن عاد، فعاد لكن بمكر ودهاء، فبينا هو يخطب، وقد تعرَّض لذكر عمر ـ رضي الله عنه ـ صرف اللَّفظة، وهي ممنوعة من الصرف للعلمية والعدل، وكأنَّه يُلمِحُ بذلك إلى أنه ـ أي عمر ـ لا عدل فيه ولا معرفة = ففطن العلماء لذلك ووشو به إلى السُّلطان، فأوقع عليه ما أوعد به.

وحين تطالع تراثَ المعتزلة، سيما العلَّامتين اللُّغويَّين الزمخشريّ وابن جنِّيّ ، ترى أمثلةً كثيرةً منِ استدلالاتهم بما يسوغ لغةً، على معتقداتهم الاعتزاليَّة.

الجديد و الحصري NEW & EXCLUSIVE

فأنَّى لك أيُّها العقديُّ معرفةُ المذهب المستقيم، وتقويةُ حُجَّتك، إذا لم تكن عارفا بأساليب الكلام من حقيقة ومجاز، ومتى يُحمل الكلام على الحقيقة؟ ومتى يحمل على المجاز؟

فمثلًا: قوله ـ تعالى ـ: **(وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا)** [النساء: ١٦٤] لا يمكن حمل الكلام على المجاز؛ لأنَّ الفعل مؤكَّد بمصدر، والمصدر المؤكِّدُ لعامله = رافع لاحتمال المجاز.

قَالَ الفرَّاءُ وثعلبُ: "إِنَّ الْعَرَب تسمِّى مَا توصَّل إِلَى الْإِنْسَان: كلَامًا، بِأَيّ طَرِيق وصل إِلَيْهِ. ما لم يُؤَكَّد بالمصدر. فإنْ أُكِّد به لم يكن إِلَّا حقيقة الكلام، وَهَذَا كالإرادة. يُقَال: أَرَادَ فلَان إِرَادَة، فَيكون حَقِيقَة الْإِرَادَة، وَلَا يُقَال: أَرَادَ الْجِدَارُ أَن يسْقط إِرَادَة. وَإِنَّمَا يُقَال: أَرَادَ الْجِدَار، من غير ذكر الْمصدر؛ لِأَنَّهُ مجَازٌ. فَلمَّا حقَّق اللهَ كَلامَه مُوسَى بالتكليم، عُرِف أَنَّه حَقِيقَةُ الْكَلَام من غير وَاسِطَة".

وقال أحمدُ بنُ يحيى: "لو قال: وكلَّم الله، من غير أن يؤكَّد بالمصدر .. لاحتمل كما قالوا ـ أي المجاز ـ فلمَّا قال: تكليمًا = سقط الشَّكُّ الَّذي كان يدخُلُ في الكلام؛ لأنَّ أفعال المجاز لا تُؤَكَّدُ بذكر المصادر".

كيف لك أن تعرف هذا وغيرَهُ استقلالا إلَّا بالتَّمكُّن من لغة العرب؟!

وأنَّى لك معرفةُ مذهبِ أهلِ الحديثِ من مذهب المعتزلةِ في خلق أفعالِ العباد، إذا لم تكن عالمًا بموقع "ما" من الإعراب في قوله ـ تعالى ـ: **(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ)** [القصص: ٦٨] وقوله ـ تعالى ـ: **(وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)** [الصافات: ٩٦]؟! فتعلم أن أهل السُّنَّة يجعلونها في الأولى نافيةً، وفي الثَّانية موصولةً. والمعتزلةُ يعكسون.

وكيف يمكن لك دفعُ تُهمة الشِّرك عن أنبياء الله ـ تعالى ـ قبل البعثة، إذا لم تكن عالمًا باستخدامات الفعل (ضَلَّ) و(عَادَ) عند العرب؛ لتحمل على أقربها للسِّيَاق قولَه ـ تعالى ـ: **(وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى)** [الضحى: ٧] وقوله ـ تعالى ـ على لسان موسى ـ صلَّى الله عليه وعلى نبيِّنا ـ: **(فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ)** [الشعراء: ٢٠]، وقوله ـ تعالى ـ على لسان شعيب ـ عليه السَّلام ـ: **(قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا)** [الأعراف:٨٩]؟!

وكيف لبعيد عن اللُّغة أن يدفع مُشكِلَ قول النَّبيِّ ـ صلَّى الله عليه وسلَّم ـ: (خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ)! هل يعود الضَّمير لأقرب مذكور، أو لأشرف مذكور؟!

وكيف يمكن اسْتِكْنَاهُ حروفِ المعاني – وهي أعْوَصُ مباحث اللُّغةِ – وبيان مواضعها في الكلام، وتأثيرها على معنى ما قبلها وما بعدها، وأثر ذلك في اختلاف العقائد = إلَّا بالتَّمكُّن من لغة العرب؟! كما في قوله ـ تعالى ـ: **(ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ)** [البقرة: ٢٩]، وقوله ـ تعالى ـ: **(وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ)** [الأنعام: ٣] وقول الجارية للنَّبيِّ ـ صلَّى الله عليه وسلَّم ـ حين سألها: "أَيْنَ اللهُ؟" قالت: " في السَّمَاءِ "... وغير ذلك كثير.

وكيف يمكن فهمُ قولِ ابن عبَّاس في قوله ـ تعالى ـ: **(أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى)** [الأعراف: ١٧٢] = رُوِيَ عنه أنَّه قال: (لو قالوا نعم لكفروا)؟! فما الفرق عند العرب بين "نعم" و "بلى" في الجواب؟

إنَّ من الدَّوافع ـ المذكورة ـ لتدوين علم النَّحو = المحافظةَ على صفاء العقيدة من أكدار الانحرافات.
فقد ذكرَ ابنُ الأنباريِّ وغيرُه، عن ابن أبي مُلَيْكَةَ ـ رضي الله عنه ـ قال: "قدم أعرابِيٌّ في زمان عُمُرَ ـ رضي الله عنه ـ فقال: "من يُقرِئُني ما أنزل الله على محمَّد ـ صلَّى الله عليه وسلَّم ـ فأقرأَهُ رجلٌ، فقال: (أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولِهِ) بالجَرِّ في (رسولِه)! فقال الأعرابي: أَوَقَد برئ الله من رسوله؟! إن يكن اللهُ برئَ من رسوله = فأنا أبرأُ منه! فبلغ عمرَ مقالةُ الأعرابيِّ، فدعاه. فقال: يا أعرابيُّ! أتبرأ من رسول الله ـ صلَّى الله عليه وسلَّم ـ؟! قال: يا أميرَ المؤمنين! إنِّي قدمتُ المدينة، ولا علم لي بالقرآن، فسألتُ من يُقرِئُني فأقرأني هَذَا سورةَ "براءة" فقال (أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولِهِ) ـ بالجرِّ ـ فقلتُ: إن يكن اللهُ برئَ من رسوله = فأنا أبرأُ منه.
فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: "ليس هكذا يا أعرابيُّ". قال: فكيف هي يا أميرَ المؤمنين؟ فقال: **(أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ)** [التوبة: ١] ـ بالرَّفع ـ فقال الأعرابيُّ: "وأنا والله أبرأ ممَّا برئ الله ورسولُه منهُ".
فأمر عمرُ بنُ الخُطَّاب ـ رضي الله عنه ـ ألَّا يُقْرِئَ النَّاس إلَّا عالِمٌ باللُّغة، وأمر أبا الأسود الدُّؤَلِيَّ ـ رحمهُ الله ـ فوضعَ النَّحوَ.

هذا كلُّه وغيره يؤَكِّدُ لكَ التَّرابُطَ القويَّ، والعلاقةَ الوثيقَةَ بين علوم اللُّغة والعقيدة، وأنَّه لا غنى لباحثٍ في العقيدة عن اللُّغة وعلومها ... والله أعلم.

وأمَّا صاحب الحديث والفقه:

فأنَّى لمحدِّث أو فقيه فهمُ كلام النَّبيِّ – صلى الله عليه وسلَّم – على مراده، وإدراك جماليَّات البيان النبويِّ .. إلَّا بها؟!

قال الشَّافعي: " فمن جهل هذا من لسانها، يعني لسان العرب – وبلسانها نزل القرآن وجاءت السُّنَّة به – فتكلَّف القول في علمها ..تكلَّف ما يجهل لفظه، ومن تكلَّف ما جهل وما لم يثبته معرفة، كانت موافقته للصواب – إن وافقه – من حيث لا يعرفه غير محمودة، وكان في تخطئته غير معذور، إذ نظر فيما لا يحيط علمه بالفرق بين الصواب والخطأ فيه".

وقال ابن حزم: "وأما من وسم اسمه باسم العلم والفقه، وهو جاهل للنحو واللُّغة، فحرام عليه أن يفتي في دين الله بكلمة، وحرام على المسلمين أن يستفتوه؛ لأنه لا علم له باللسان الذي خاطبنا الله . تعالى . به. وإذا لم يعلمه، فحرام عليه أن يفتي بما لا يعلم".

ويذهب أبو بكر الشَّنتينيُّ إلى أبعد من ذلك، فيقول: "لا يجوز أن يفتيَ النَّاسَ في الفقه من كان عاريا عن النَّحْوِ، ومتى فعل ذلك: أخطأ وأثم وتَعَدَّى وظلم"

وقال بعض الأئمَّة: "من تكلَّم في الفقه بغير لغة .. تكلَّم بلسان قصير".

وقال السيوطيُّ مُلَخِّصًا كلام الفخر الرَّازي في [المحصول] وغيره: "اعلم أنَّ معرفة اللُّغة والنَّحو والتَّصريف فرضُ كفاية؛ لأن معرفة الأحكام الشَّرعيَّة واجبةٌ بالإجماع. ومعرفةُ الأحكام بدون معرفة أدلَّتها مستحيلٌ، فلابدَّ من معرفة أدلَّتها. والأدلَّةُ راجعةٌ إلى الكتاب والسُّنَّة، وهما واردان بلغة العرب ونحوهم وتصريفهم، فإنَّ توقُّف العلم بالأحكام على الأدلَّة. ومعرفةُ الأدلَّة تتوقَّفُ على معرفة النَّحو والتَّصريف. وما يتوقف على الواجب المطلق، وهو مقدورٌ للمكلَّف = فهو واجبٌ. فإذن معرفةُ اللُّغة والنَّحو والتَّصريف واجبةٌ".

وقد أقام الشَّافعيُّ عشرين سنة في بطون العرب يتعلَّم اللُّغة؛ حتى صار كلامة لغةً يُحْتجُّ به، فسئل في ذلك فقال: "ما أردتُّ بهذا إلا استعانةً للفقه".

أي: ظلّ عشرين سنة يتبحّر في اللغة العربية وعلومها؛ ليفقه القرآن والسُّنَّة.

وأنَّى للمحدِّث والفقيه والمتكلِّم أن يعصم لسانه عن اللَّحن في الحديث النَّبويِّ .. إلَّا بتعلُّم اللُّغة؟!

قال – عليه الصَّلاة والسَّلام – لرجل لحن: "أرشدوا أخاكم فإنَّه قد ضلَّ".

وقال عليّ بن الجعد: سمعت شعبة يقول: "مثل صاحب الحديث الَّذي لا يعرف العربيَّة؛ مثلُ الحمار عليه مخلاةٌ لا علف فيها".

وقال حماد بن سلمة: "من طلب الحديث، ولم يتعلَّم النَّحو، أو قال العربية – فهو كمثل الحمار، تُعَلّقُ عليه مخلاةٌ ليس فيها شعيرٌ".

وقال الأصمعيّ: أخوف ما أخاف على طالب العلم، إذا لم يعرف النَّحو أن يدخل في جملة قول النَّبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – " من كذب عليَّ متعمِّدًا فليتبوأ مقعده من النَّار".

طالبَ العلم! إنَّ اللَّاحن في رواية الحديث النَّبويِّ كاذبٌ على النَّبيِّ ـ صلَّى الله عليه وسلَّم ـ .. ومن أَجَازَ روايةَ الحديث بالمعنى، اشتَرَطَ أن يكون الرَّاوي جامعًا لعلمَيْ اللُّغة والفقه .. وغريبُ الحديثِ لا يُزيل غرابَتَه إلَّا من تمكَّن من اللُّغة .. وفهمُ مراد النَّبيِّ ـ صلَّى الله عليه وسلَّم ـ من كلامه؛ لاستنباط الأحكام والآداب منه، لا بُدَّ له من اللُّغة .. وكَثِيرٌ من مباحث أصول الفقه = هي مباحثُ لغويَّة مَحْضة، ولا يبرع في الأصول عامَّة إلَّا بارع في العربيَّة.

أيُّها المحدِّث والفقيه والمتكلِّم!

لغتك هي انتماؤك، لو فرطت فيها .. لانتهى أمرك إلى ضياع العمر والفكر، وضياع ما تنتمي إليه؛ فإنَّ أكثر من ضلَّ من أهل العلم عن القصد، وحاد عن الطَّريق .. هم من ضعفت عندهم هذه اللُّغة الشَّريفة.

قال الشَّافعيُّ: "ما جهل النَّاس، ولا اختلفوا إلا لتركهم كلام العرب، أو قال: لسان العرب، وميلهم إلى لسان أرسطاليس".

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وها أنا أكتبُ لك ما يُمليه علَيَّ قلبي، وما أستشعِره بحقٍّ في نفسي، وما تصنعه اللُّغة في التَّكوين العلمي.

فأقول:

اللُّغة هي مفتاح فهم الكتابِ والسُّنَّةِ.

فإنَّ أهل العربيَّة يبصرون من خفايا المعاني، ودقائق الفُهوم، وبدائع النِّكات، ما لا يُبصِر غيرهم، وهم أقدرُ النَّاس على فهمِ كلام اللَّه ورسوله، واستجلاءِ أقربِ المعاني إلى مراد اللَّه، ومراد رسوله؛ لذلك أقام الشَّافعيُّ عشرين سنةً يتعلَّم فنون العربيَّة.

وقد قال – رحمه اللَّه – مُجمِلًا هذا المعنى: "أصحاب العربيَّة جنُّ الإنس؛ يبصرون ما لا يُبصر غيرهم".

ولن يفلح طُلَّابُ علوم الشَّريعة إلَّا بها، بل لن يترقىَ أحدُهم من كونه متَّبعًا أو مقلِّدا، إلى كونه طالبَ علم، مشروعَ عالم، طالما هو بعيدٌ عنها = فهي أساس بُنيان الشَّخصيَّة العلميَّة الرَّاسخة القويَّة؛ إذ لا سبيل إلى فهم القرآن والسُّنَّة إلَّا هذا السَّبيل، فمن كان جاهلا بها فإيَّاه والجرأةَ عليهما.

كتب عمرُ إلى أبي موسى الأشعريِّ ـ رضي الله عنه ـ: " أما بعدُ: فتفقَّهُوا في السُّنَّة، وتفقَّهوا في العربيَّة، وأعربُوا القرآن، فإنَّه عربيٌّ".

قال ابنُ تيمية: " وهذا الَّذي أمر به عمرُ ـ رضي الله عنه ـ من فقه العربيَّة وفقه الشَّريعَة، يجمعُ ما يُحتَاجُ إليه؛ لأن الدِّين فيه أقوالٌ وأعمالٌ، ففقه العربيَّة هو الطَّريق إلى فقه أقواله، وفقهُ السُّنَّة هو فقهُ أعماله".

قال الشَّافعي: " فمن جهل هذا من لِّسانها، يعني لسانَ العرب – وبلسانِها نزل القرآن، وجاءت السُّنَّة به – فتكلَّفَ القولَ في علمها .. تكلَّف مَا يَجْهَلُ لَفْظَهُ، ومن تكلَّف ما جهل وما لم يُثْبِتْهُ مَعْرِفَةٌ = كانت موافقتُه للصَّواب – إن وافقه – من حيث لا يعرفه غيرَ محمودة، وكان في تخطئته غيرُ معذور؛ إذ نظر فيما لا يُحيط علمُه بالفرق بين الصَّواب والخطإ فيه".

أقول: وواعجبا لمن يخطئون الأئمة ويتعقبونهم، وهم بعدُ لم يحصلوا الآلة التي بها يفهمون! أعيتهم أن يتمكَّنوا منها؛ تعجُّلا منهم للترؤُّس، فأفسدوا على النَّاس فُهوم أئمَّة الإسلام للقرآن والسُّنَّة، وقادوا النَّاس عنوة إلى فهومهم، أو فهوم من قلدوهم! ممن لم يتمكَّنوا ـ أيضا ـ من الآلةِ تمكُّنَ أئمَّة الإسلام المتقدِّمين!

قال ابنُ حزم: "وأما من وسم اسمه باسم العلم والفقه، وهو جاهل للنحو واللُّغة، فحرام عليه أن يفتي في دين الله بكلمة، وحرام على المسلمين أن يستفتوه؛ لأنه لا علم له باللسان الذي خاطبنا الله ـ تعالى ـ به. وإذا لم يعلمه، فحرام عليه أن يفتي بما لا يعلم".

وقال ابنُ تيمية: "إنَّ نفس اللُّغة العربيَّة من الدِّين، ومعرفتَها فرضٌ واجبٌ، فإنَّ فهمَ الكتاب والسُّنَّة فرضٌ، ولا يُفهم إلَّا بفهم اللُّغة العربيَّة، وما لا يتمُّ الواجبُ إلَّا به فهو واجبٌ".

وقال الشَّاطبيُّ: " على النَّاظر في الشَّريعة والمتكلِّم فيها أصولًا وفروعًا أمران: **أحدهما:** أن لا يتكلَّم في شيء من ذلك حتَّى يكونَ عربيًّا، أو كالعربيِّ في كونه عارفًا بلسان العرب، بالغًا فيه مبالغ العرب، أو مبالغ الأئمَّة المتقدِّمين، كالخليل وسيبويه والكسائيِّ والفرَّاء ومن أشبههم وداناهم، وليس المراد أن يكون حافظا كحفظهم، وجامعًا كجمعهم؛ وإنَّما المراد أن يصير فهمُه عربيًّا في الجملة. وبذلك امتاز المتقدِّمون من علماء العربيَّة على المتأخِّرين؛ إذ بهذا المعنى أخذوا أنفسهم حتَّى صاروا أئمَّة، فإن لم يبلغ ذلك .. فحسبُه في فهم معاني القرآن التقليدُ، ولا يُحَسِّنُ ظنَّه بفهمه دون أن يسأل فيه أهل العلم به".

إنَّ العقلَ المستقيمَ قاضٍ بأنَّك لو ذَهَبت لصاحب صَنعة، وحُزْت نتاجَ صنعته كلَّه = فلن تكونَ صانعًا قطُّ .. إلَّا إذا توافرت لديك الآلةُ الَّتي بها يَعْمَلُ، والعقليَّةُ الَّتي بها يُفَكِّرُ، وكان لك نتاجٌ كنتاجه = حينئذ تصيرُ مثلَه. وكذلك الحَالُ في صَنْعَةِ العلمِ.

فلا سبيل إلى فهم القرآن والسُّنَّة . استقلَال . إلا بتوافُرِ آلة الفهم = وهي اللُّغةُ وفنُونُها، وإلَّا فلن يعدُوَ النَّاظرُ فيهما كونَه مقلِّدًا، وإن ترقَّى: فمُتَّبعًا!

اللُّغة هي بناء طالب العلم النَّاجح.

ولا تُفسَّر قلَّةُ العلم مع كثرة مواردِهِ، إلَّا بعدم المعرفة بلغة العرب.

فلو افترضنا أنَّ رجلًا حفظ القرآن بقراءاته، والسُّنَّة برواياتها، ولا علم له بلغة العرب .. فسيبقى كحامِلِ الماء فوق ظهره، والعطشُ يقتله، وكالطَّائر يروم الطَّير ولا جَنَاح يحمله.

عن عبد الله بن عَمرو بن العاص – رضي لله عنه – قال: سمعت رسول الله . صلَّى الله عليه وسلَّم . يقول: «إنَّ الله لا يقبض العلم انتِزاعًا ينتزعُهُ من النَّاس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتَّى إذا لم يترك عالمًا، اتَّخذ النَّاس رءوسًا جُهَّالًا، فسُئِلوا فأفْتَوا بغير علم، فضلوا وأضلوا».

قال الشافعي: "ما جهل النَّاس، ولا اختلفوا إلا لتركهم كلام العرب، أو قال: لسانَ العرب، وميلهم إلى لسان أرسطاليس".

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قال السّيوطيُّ مُعَقِّبًا: "وقد وجدتُّ السَّلف قبل الشَّافِعِيِّ أشاروا إلى ما أشار إليه = من أنَّ سببَ الابتداع، الجهلُ بلسان العرب".

وتوضيح ذلك: أنَّ الطَّالِب الَّذي يبدأ سُلَّم التَّدرُّجِ العِلْميِّ بغير اللُّغة وفنونها، لن يصل إلى ما يصبوا إليه، ولو عُمِّرَ ما عُمِّرَ نوحٌ؛ لأنه فاقدٌ لآلة الفهم، فيجد الطَّريق سهلًا في أوَّله، فإذا قطع شوطًا استوحشه؛ لوُعورته، فيقعد عن السَّير؛ لصعوبته، ويبقى كلُّ ما حصَّله من معارف = ما هو إلا ثقافة عامَّة، قلَّد فيها غيرَه .. فيظلُّ أبد الدَّهر مقلِّدًا، يتقلَّب على موائد الآخرين.

والأنكى من ذلك: أنَّه سيظَلُّ أسيرَ المعاصرة. فإذا حاول النُّهوض بنفسه إلى مَصَافِّ المتقدمين، وفتح كتابًا من كتبهم ليقرأهُ؛ حرصا منه على تحصيل الملكة العلميَّة = حال بينه وبينها أنَّها كُتبت بلغة غيرِ لغته، وصيغت بعبارة غير مألوفة له! فيرجعُ القَهْقَرى، مغلِقًا كتابَه، غير مُكلِّفٍ نفسَه عناءَ السُّؤال عمَّا استعصَى عليه، فضلًا عن أن يُمَكِّنَهَا من آلة الفهم.

فمثل هذا الَّذي بدأ حياته العلميَّة (بالمقلوب كما يقولون) = لا بُدَّ وبحكم الطَّبع أنه يمشي إلى الوراء؛ فحسْبُه في فهم معاني القرآن والسُّنَّة التَّقليدُ، ولا يُحَسِّنُ ظنَّه بفهمه دون أن يسأل فيه أهلَ العلم به.

في حين أنَّ الطَّالب الَّذي احتَرَم لغةَ العلم، وبدأ حياته العلميَّة عاكفًا على اللُّغة وفنونها (**كفعل الإمام المُطَّلِبِيّ – رحمه اللَّه –**) محاولا سبرَ أغوارها = قد قطع شوطا كبيرا، وأقام أُسُسًا عظيمة، يستطيع أن يبني عليها أعظم الأبنية، فيسهُل عليه بعد ذلك تحصيلُ بقيَّة العلوم في يُسر وسهولة؛ لأنَّه قد تمكَّن من الآلة التي تمكَّن منها الأئمَّة المتقدِّمون .. فما فسَّروا القرآن والسُّنَّة إلا بما عُلِّمُوه من لغة العرب.

فاللُّغة أداةٌ للفهم والفكر، وليست مجرَّد أداة تواصل .. إنَّها مستودع أسرار القرآن والسُّنَّة، تُخَبِّئُ في حروفها وكلماتها وجُملها سرَّ إعجاز البيان الرَّبَّانيِّ، والبيان النَّبويِّ.

ألا ترى! كيف عَلِم ابنُ عبَّاس تأويل القرآن، والنَّبيُّ . صلَّى الله عليه وسلَّم . لم يفسِّره؟!

إنَّها اللُّغة التي ارتضع لبانها طفلًا، وتربَّى في حَجْرِها صبيًّا، وارتوى من معينها شابًّا، وعاش عليها كهلا، ومات ولِهًا بها شيخًا.

وسؤالاتُ نافعِ بن الأزرق خيرُ شاهد على ذلك. وقد ذكرها ابنُ الأنباريِّ في"الإيضاح"، وغيرُه في غيرِه.

قال سعيد بن جبير ويوسف بن مهران: "سمعنا ابنَ عبَّاس يُسأل عن الشَّيء من القرآن فيقول فيه كذا وكذا، أما سمعتم قول الشاعر يقول فيه كذا وكذا".

وعن عُمر – رضي الله عنه – أنَّه سأل وهو على المنبر عن معنى قوله . تعالى . ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ [النحل: ٤٧] فأخبره رجلٌ من هذيل أنَّ التَّخوُّف عندهم هو: التَّنقُّصُ".

فإن أنت تمكَّنت من الآلة التي تمكَّنوا منها: كنت قادرا على أن تفكِّر بعقلهم، وتتكلَّم بلسانهم، وربما زوَّرت في نفسك تأويلَ آية أو شرحَ حديث، فيوافق ما زوَّرتَه ما كتبوه.

وأيضا: فكلُّ العلوم مفتقرةٌ إلى العربيَّةِ، ولا غنى لعلم عنها، فهي سُلَّم الارتقاء لعلوم الشَّريعة جمعاء.

قال الزَّمخشريُّ: " إنّهم لا يَجِدون عِلْمًا من العُلوم الإسلاميّه، فِقْهِها وكلامِها، وعِلْمَي تفسيرِها وأخبارِها، إلاَّ وافتقارُه إلى العربيّة بيّنٌ لا يُدْفع، ومكشوفٌ لا يتقنّع، ويَرَوْنَ الكلامَ في مُعظم أبواب أُصول الفقه ومسائلها، مبنيًّا على علم الإعراب، والتفاسير مشحونة بالروايات عن سِيبَوَيْه والأخفَش والكسائي والفَرّاء، وغيرهم من النحويّين البصريّين والكوفيّين، والاستظهار في مآخِذِ النُّصوص بأقاويلِهم، والتشبُّث بأهداب فَسْرِهم وتأويلِهم".

ويقول ابن فارس: "إنّ العِلْم بلغة العرب واجبٌ على كل متعلِّقٍ من العِلْم بالقرآنِ والسنةِ والفُتيا بسبب، حتَّى لا غَناءَ بأحد منهم عنه. وذلك أنّ القرآن نازِلٌ بلغة العربِ، ورسولُ الله –صلى الله عليه وسلم– عربيٌّ. فمَن أراد معرفة ما في كتاب الله –جلّ وعزّ– وما في سنَّة رسول الله –صلَّى الله عليه وسلَّم– من كلِّ كلمة غريبةٍ، أو نظْم عجيبٍ = لم يجد من العلْم باللغة بُدًّا".

أضف إلى ذلك: أنَّ تمكُّنَك من لغة العرب .. يقصِّر لك عمر طلب العلم جدا؛ لأنَّ لغتك حينئذ ستكون كلغة أسلافك ممَّن دوَّنوا العلم وحفظوه، فلن تشعر بعناءٍ في مطالعة ما كتبوه، ولا بتعب في فهم ما قالوه، وستُدمنُ النَّظر في تراثهم، وستُدفَع رَغما عنك إلى عالَمهم، ويصعب عليك التَّلذُّذ بمن دونهم. فيزهد سمعُك وبصرُك غاية الزُّهد في غيرهم، إلَّا فيمن سار على طريقتهم.

وحينها: ستعيش حقيقة العلم، وستكون أنت في عالم سماويّ، وغيرك الذي لم يسلك طريقك في عالم أرضيّ.

إذا وصلت إلى هذه المرحلة: فاعلم أنَّك قد وضعت قدمك على الطَّريق السَّويّ للعلم، فتُقْبِل المعارفُ عليك تتبخترُ أمام عينيك وأنت العاشق الولهان النَّهِم ... فيا لها من لذَّة يعجز البيان عن وصفها.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

اللُّغةُ تُكسِبُ طالبَ العلم سَعة في الأفُقِ وانفتاحًا في الفِكْر.

ذلك أن اللُّغةَ واسعةٌ، ولا يحيط بها إلا نبيٌّ. واللَّفظ العربيُّ، سيما ألفاظ القرآن والسُّنَّة = يَحتَمِل معانٍ واسعةً سَعةَ اللُّغة.

قال الشَّافعيُّ: "لسانُ العرب أوسعُ الألسنة مذهبًا، وأكثرُها ألفاظًا ... ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسانٌ غيرُ نبيٍّ. ولكنَّه لا يذهب منه شيء على عامَّته حتى لا يكون موجودا فيها من يعرفه ... والعلم به عند العرب، كالعلم بالسُّنَّة عند أهل العلم .. لا نعلم رجلا جمع السُّنن فلم يذهب منها عليه شيء، فإذا جُمع علمُ عامَّة أهل العلم بها أتى على السُّنن، وإذا فُرِّق كلُّ واحد منهم ذهب عليه الشيء منها، ثم كان ما ذهب عليه منها موجودا عند غيره ممَّن كان في طبقته وأهل علمه ... وهكذا لسان العرب عند خاصَّتها وعامَّتها، لا يذهب منه شيء عليها، ولا يُطْلَبُ عند غيرها، ولا يعلمه إلا من نقله عنها، ولا يَشْرَكُهَا فيه إلا من اتَّبعها في تعلُّمه منها. ومن قَبِلَهُ منها فهو من أهل لسانها".

وما أجمل ما علق به أبو منصور الأزهريُّ، حيث قال: " قد قَالَ الشَّافِعِي ـ رَحِمَه الله تَعَالَى ـ فَأحْسن، وأوضح فبيَّن، ودلّ سياقُ بَيَانه فِيمَا ذَكَرْنَاهُ عَنهُ آنِفا، وَفِيمَا لم نذكرهُ إيجازًا = على أنّ تعلُّم الْعَرَبيَّة الَّتِي بهَا يُتوصَّل إِلَى تعلم مَا بِهِ تجْرِي الصَّلَاة من تنزيلٍ وذكرٍ = فرضٌ على عامّة الْمُسلمين، وأنّ على الخاصّة الَّتِي تقوم بكفاية الْعَامَّة فِيمَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ لدينهم، الاجتهادَ فِي تعلُّم لِسَان الْعَرَب ولغاتها، الَّتِي بهَا تَمام التوصُّل إِلَى معرفَة مَا فِي الْكتاب وَالسّنَن والْآثَار، وأقاويل المفسّرين من الصّحابة وَالتَّابِعِينَ، من الْأَلْفَاظ الغريبةِ والمخاطبات الْعَرَبيَّة، **فإنَّ من جهل سَعَة لِسَان الْعَرَب وَكَثْرَة ألفاظها، وافتنانها فِي مذاهبها، جَهِل جُمَل علم الْكتاب**، وَمن عَلمها ووقَف على مذاهبها، وفهمَ مَا تأوَّله أهل التَّفْسِير فِيهَا، زَالَت عَنهُ الشُّبَه الدَّاخِلَة على مَن جَهِل لسانَها من ذَوي الْأَهْوَاء والبِدع".

وقال أحمد ابن فارس في [الصَّاحبيّ]: "وهذا كلامٌ حَرِيٌّ أن يكون صحيحًا. وَمَا بلغنا أنّ أحدًا ممَّن مضى ادَّعى حِفْظَ اللُّغة كلِّهَا".

وهؤلاء أصحاب النَّبيِّ ـ صلَّى الله عليه وسلَّم ـ خفي عليهم ـ وهم أربابُ الفصاحة ـ بعضُ الألفاظ العربيَّة.

فعن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – أنه قال: «قلنا يا رسول الله. من خير الناس؟ قال: **ذو القلب المخموم، واللسان الصادق**، قلنا: قد عرفنا اللسانَ الصادق، فما ذو القلب المخموم؟ قال: **"هو التَّقي النَّقي الذي لا إثم فيه ولا حسد"**.

فتأمَّل: خفي عليهم ـ وهم أربابُ الفصاحة، وأبناء أُمِّها وأبيها ـ معنى: "ذو القلب المخموم".

وهذا الفاروقُ عُمَر بنُ الخَطَّاب: قَرَأَ عَلَى المِنبَرِ (وَفَاكِهَةً وَأَبّاً) [عبس ٣١]، فَقَالَ: هذه الفَاكِهَةُ قَد عَرَفنَاهَا. فَمَا الأَبُّ؟ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى نَفْسِهِ فَقَالَ: إِنَّ هَذَا لَهُوَ الكَلَفُ يَا عُمَرُ!

وابن عبَّاس حبر الأُمَّة وتَرجمان القرآن يقول: كُلُّ القُرْآنِ أَعْلَمُهُ إِلَّا أَربَعًا: (غِسْلِينٍ) [الحاقة ٣٦] و(وَحَنَانًا) [مريم ١٣] و(أَوَّاهٌ) [هود ٧٥] و(وَالرَّقِيمِ) [الكهف ٩].

ويقول: مَا كُنْت أَدرِي مَا قَولُهُ: (رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ) [الأعراف ٨٩] حَتَّى سَمعتُ قَوْلَ بِنتِ ذِي يَزِنَ: "تَعَالَ أُفَاتِحَكَ " أي: أُخَاصِمَكَ.

ويقول: "مَا أَدْرِي ما الغسلينُ! وَلَكِنِّي أَظُنُّهُ الزَّقُّومَ.

ويقولُ: كُنتُ لَا أَدرِي مَا فَاطِر السَّمَوَاتِ، حَتَّى أتاني أَعرَابِيَّانِ يَخْتَصِمَانِ في بِئرٍ. فَقَالَ أَحَدُهُمَا: أَنَا فَطَرْتُهَا.

أي: ابْتَدَأْتُهَا. وهو الحبر فقيه الدِّين، وإمام التَّأويل! ... وغير ذلك كثير.

فهؤلا الفصحاءُ الأقحاحُ، مع تمكُّنهم من لغة العرب = إلا أنهم خفي عليهم بعض ألفاظ العرب ومعانيها! فكيف بمن بعدهم؟!

فمن علم ذلك: اتُّسع أُفُقُه، وانفتح فكرُه، وتقبَّل الآراء المبنيَّة على فُهُوم صحيحة، بِرَحَابَةِ صدر وسَعَة أُفُق؛ لعلمه بكثرة مسالك الفُهُوم، واحتمال اللَّفظ العربيِّ لتأويلات متعددة.

وأثرها التَّربَويُّ عليه: رُقِيٌّ في أخلاقه، ورقَّةٌ في طِباعه، واعتدالٌ في مدحِهِ، وإنصافٌ في قدحِهِ، وإنزالُ كلِّ منزلتَه، من غير زيادة ولا نقصان.

قال الشَّافعيُّ: "من تعلم اللُّغة رقَّ طبعُه".

وقال الثَّعالبيُّ: "ثُمَّ هي ـ اللُّغة ـ لإحراز الفضَائل، والِاحْتِواء على المروءةِ وسائرِ أنواعِ المناقِبِ = كالينبوع للماء، والزّند للنَّار"

اللُّغةُ هي السَّبيل إلى صدِّ هجْمات أعداء الدين.

إنَّ أعداء الدِّين يئسوا أن ينزعوا قدسِيَّة القرآن والسُّنَّة من قلوب المسلمين، وأيقنوا أن لَّا جدوى من الطعن فيهما؛ لأن قدسيتَهما في قلوب المسلمين أقوى من كيدهم.

فأظهروا البراءة كالحَمَل الوديع، وجعلوا يمكرون مكر الثعالب؛ ليهدموا القرآن والسُّنَّة في قلوب المسلمين، فاتجهوا اتجاها خبيثا خفيا = زرعوا بذرته منذ عشرات السِّنين، وهم يجنون حصاده الآن.

وهذا التوجّهُ: هو هدمُ اللُّغة الَّتي هي أصلُ القرآن والسُّنَّة، وبها يفهمان، فبدأوا أولًا باستِهجَان الفُصحى، ثمَّ لما أفلَحُوا: اتَّجهوا إلى الإقلال منها، وخلطها بالعامِّيَّة، ثمَّ اتجهوا إلى تعريب العامِّيَّة (على غرار شرعنة

الفسق والفجور) ثم خلطوها بلغة العجم. وقلَّلوا من شأن مُعَلِّم العربيَّة، ورفعوا شأن مُعَلِّم لغة العجم العقيمة، ومحَوا تدريس اللُّغة العربيَّة في المراحل التَّعليميَّة، اللَّهم إلا فُتاتًا يسيرا لا يروي غُلًّا! ... وهكذا **"فُرِّغت الأجيال من ثقافتها"** كما قال شيخُ العربيَّة أبو فهر.

ثم طرحوا الشُّبهات التي تهدم القرآن والسُّنَّة في قلوب تلك الأجيال المفَرَّغَة من ثقافتها، فصادفت قلبًا خاليًا من نُّور البصيرة والعلم والفهم، فتمكَّنت وشبَّت وترعرعت وشاخَت وأنجبت = حتَّى صرنا بعد أن كانوا يصدِّرُونا شبهاتِهم، نصدِّرُها نحنُ إليهم ... وألحد هذا، وتزندق ذلك ... وهكذا؛ لأنه لا عاصم لهم مِّن علم أو معرفة.

في حين أن تلك الشُّبُهات حينما كانت تُطْرحُ قديما = كان ينبري لها صغار الطُّلاب، آتين على بنيانها من القواعد، استقلالا؛ لتمكُّنهم من آلات فهم القرآن والسُّنَّة.

قال أبو منصور الأزهريُّ موضحًا أهميَّة اللُّغة في مواجهة الشُّبهات: "فعلينا أَن نجتهدَ فِي تعلُّم مَا يُتوصَّل بتعلمه إِلَى معرفَة ضروب خطاب الْكتاب، ثمَّ السُّنن المبيِّنة لجمل التَّنْزِيل، الموضّحة للتأويل؛ **لتنتفيَ عَنَّا الشبهةُ الداخلةُ على كثير من رُؤَسَاء أهل الزَّيْغ والإلحاد،** ثمَّ على رُءُوس ذَوي الْأَهْوَاء والبِدَع، الَّذين تأوَّلوا بآرائهم المدخولة فأخطئوا، وتكلَّموا فِي كتاب الله . جلّ وعزّ . بلَكْنَتِهِم العجميّةِ دونَ معرفةٍ ثاقبة، فضلُّوا وأضلُّوا."

وقالَ في موضع آخر: " وَمن عَلمها ووقَف على مذاهبها، وفهمَ مَا تأوَّله أهل التَّفْسِير فِيهَا، زَالَت عَنهُ الشُّبَه الدَّاخِلَة على مَن جَهِل لسانَها من ذَوي الْأَهْوَاء والبِدع".

ولا تقل: سأتناول ردَّها من نتاج فكر أئمَّة الإسلام! .. هذا حسنٌ وجميلٌ، ولا بدَّ منه، لكنْ ...

ما كتبوه لن يكون دائمًا مستَحضرا لديك، ولا هو في الغالب بين يديك، فتَتَكلَّف الرُّجوع إليه، ويتأخَّر بيانُك، وتأخير البيانِ عن وقت الحاجة مضرٌّ غالبًا.

أضف إلى ذلك أنَّه ربَّما تُطْرَحُ شبهاتٍ لم تطرحْ من قبل (وهي تافهةٌ)! فلن تتمكَّن من الجواب عليها إلَّا إذا تمكَّنت من لُّغةِ العرب وأساليبِ كلامهم كما كان أئمَّةُ الإسلام الأقدمون = فتجيب بعقلهم، وتتكلَّم بلسانهم إذابُغِتَّ؛ إذ الاكتفاء بِنِتَاجِ عقولهم = فقرٌ في التكوين العلميِّ.

لهذا الذي ذكرتُه، يتبيَّن لك لماذا كان السَّلفُ يُرَبُّون أولادهم على تعلُّم العربيَّة؟ ولماذا ارتفعوا وانحططْنا، وعَلَو وتسفَّلنا.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وأختم بما افتتح به الثَّعالبيُّ [فقه اللُّغة، وأسرار العربية]: " فَإِنَّ من أحبَّ الله ـ تعالى ـ أَحَبَّ رسُولَهُ محمَّدًا ـ صلَّى الله عليه وسلَّم ـ ومن أحبَّ الرَّسول العربيَّ أحبَّ العربَ، ومن أحبَّ العرب أحبَّ العربيَّة التي بها نزل أفضلُ الكُتُبِ، على أفضَلِ العَجَمِ والعرب، ومن أحبَّ العربية عُنِيَ بها، وثَابَرَ عليها، وصرف همَّته إليها، ومن هداه الله للإسلام، وشرح صدره للإيمان، وآتاهُ حسنَ سَرِيرَةٍ فيه = اعتقد أنَّ محمَّدًا ـ صلَّى الله عليه وسلَّم ـ خيرُ الرُّسُلِ، والإسلامَ خيرُ الملل، والعربَ خيرُ الأمم، **والعربيَّةَ خيرُ اللُّغاتِ والألسنة. والإقبالُ على تَفَهُّمِهَا من الدِّيَانة؛ إذ هي أداةُ العلم، ومِفْتَاحُ التَّفَقُّهِ في الدِّين، وسببُ إصلاح المعاشِ والمعادِ**".

فيا طالب العلم! هذه خطوط عريضة، أُسَطِّرها بِدِمَاءِ قلبي، قَبْلَ مِدَادِ قلمِي؛ علَّها تصادف قلبًا واعيًا، فنشهدَ انتفاضةً علميَّةً مؤصَّلة، على الطَّفرة الثَّقافيَّة المزَوَّرة.

هذه لُغَتُك. احترمها تُحْترم وتسعد، واجعلها قضيَّتك الأولى على طريق العلم تنهض وتصعد ... والحمدُ لله ربِّ العالمينَ أوَّلًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا.

والله من وراء القَصْدِ وهو وحدهُ الهادِي إلى سَبيل الرَّشادِ.

إسلام بن نصر الأزهري